- الأسباب والعوامل المساعدة:

إجتمعت جملة عوامل وأسباب، في نهاية العصور الوسطى، لتعطي الفعل الإستعماري معاني جديدة كالهيمنة والإستغلال، مما سيجعل من الإستعمار إحدى الدعائم الأساسية لسياسات الكثير من الدول الأوروبية.

تندرج هذه العوامل، ضمن التحولات الكبيرة التي عرفتها المجتمعات الأوروبية وخاصة الغربية منها، في نهاية العصور الوسطى، والتي يمكن إيجازها في:

ففي المقام الأول لم يحل عام1880 حتى كان الأوربيين، بفضل جهود المستكشفين والمبشرين، يعرفون عن إفريقيا ودقائق تضاريسها ومواردها ونقاط القوة والضعف في دولها ومجتمعاتها أكثر بكثير مما كان الأفريقيون يعرفون أوربا. ومن ناحية أخرى كان خوف الأوربيين من أفريقيا قد قل كثيرا عما كان عليها في النصف الأول من القرن التاسع عشر وذلك بسبب التغيرات الثورية التي طرأت على عالم الطب والممارسات الطبية ولاسيما اكتشاف المفعول الوقائي لكينا ضد مرض الملاريا.

ومن ناحية ثالثة كانت من موارد أوربا المادية والمالية تفوق بمراحل موارد إفريقيا فعلى حين أن أوروبا كانت قادرة على إنفاق الملايين من الجنيهات في حملات تشنها فيما وراء البحر كانت إفريقيا عاجزة عن التصدي لآي جبهة عسكرية طويلة الأمد مع أوربا.

ومن ناحية رابعة فقد سادت الفترة التي تلت الحرب الروسية التركية عام1877 -1878 حالة من التوازن الدولي السياسي أدت إلى السلام والركود في أوربا على حد تعبير المؤرخ البريطاني ج.هولاند روز، بينما اتسمت الفترة ذاتها في إفريقيا بالصراع والتنافس بين الدول الإفريقية وفي داخل كل دولة شعب الماندنجو في أفريقيا الغربية ضد الشعب التوكولور، وشعب الأسانتي ضد شعب الفانتي وشعب الباجندا في أوغندا ضد شعب البانيور في زمبيا وشعب الباتورو ضد شعب البانيورو، وشعب الماشونا ضد الشعب النديبيلي.

وهكذا كان باستطاعة أوربا، وقد تحررت من المشاغل الخطيرة داخل حدودها، ان تركز جهودها على الأنشطة الاستعمارية بينما كانت الدول والبلاد الإفريقية تعاني من توزع الانتباه في القضايا الهامشية ناسية مصيرها. وفضلا عن ذلك فإنه على الرغم مما كان بين

الدول الاوربية من خلافات القضايا الإمبريالية والاستعمارية، كانت أطول فترة تقسيم أفريقيا وحتى عام1914 تتوصل إلى فض هذه الخلافات دون اللجوء إلى الحرب، باستثناء الصراع الذي نشب بين البريطانيين والبوير في جنوب افريقيا.

وعلى الرغم مما نشأ بينها من تنافس وما شب من أزمات فإن روح التضامن القوية بين الدول الاوربية التي تقاسمت أفريقيا لم تعبد خطر نشوب حرب بينهما فحسب بل حلت كذلك بين حكم الافريقيين تزامنت فترة الغزو الاستعماري لأفريقيا مع إحراز تقدم تكنولوجي في صناعة الأسلحة ترتبت عليه تغيرات جذرية في فنون القتال مكنت الأوروبيين من تحقيق ساحق على المقاومة التي أبداها المحاربون الأفريقيون. ذلك أن إدخال البنادق التي تعمر من مغاليقها والخراطيش المعدنية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر قد حسن كثيرا من قدرة الرماة من حيث مدى الإطلاق ودقته وسرعته وسجل نهاية سلاح الفرسان بوصفة قوة ضاربة. والأهم من ذلك ما جد من تطورات على المدافع الرشاشة باختراع رشاشات (الصفحة السابقة) عام 1862 ورشاشات مكسيم (إلى اليمن) عام 1883. ولم يكن باستطاعة بأكبر الجيوش الأفريقية وأشدها تفانيا – وليس لديها سوى بنادقها البالية (التي تعمر من فوهاتها) وفؤوس وحربها – أن تتصدى للقوى الأوروبية الغازية بحسن تنظيمها وضبطها وتدريبها وبما أوتيت من أسلحة جديدة وفتاكة.

ففي الوقت الذي كانت فيه الشعوب الأفريقية تراهن وتسعى إلى ضرب دولة أوروبية بدولة أخرى أوروبية. وطوال هذه الفترة كانت الدول الأوروبية المختلفة تعتدي على دول أفريقية واحدة تلو أخرى دون أن يخطر على بال الدولة أوروبية أن تنتصر لدولة أفريقية ضد دولة أوروبية أخرى.

أما الدول الأفريقية فكانت تفتقر إلى روح التضامن والوحدة والتعاون لدرجة أن دولا منها لم تتوان عن دعم العدوان الأوروبي. فقد تحالف شعب الباجندا مع البريطانيين ضد شعب البانيورو، وتحالف شعب الباروتسي أيضا معهم ضد شعب النادبيلي بينما تحالف البمبارا مع الفرنسيين ضد شعب التو كولور.

وأخر هذه العوامل وأشدها حسما بطبيعة الحال هو تفوق الأوروبيين التنظيمي والعسكري الكاسح على أفريقيا. فعلى حين أن أوروبا كانت تمتلك جيوشا محترفة جيدة التدريب، فما أقل الدول الأفريقية التي كان لديها جيوش دائمة وأقل منها الدول التي كان لديها جيوش محترفة. وعلاوة على ذلك كان بإمكان الأوروبيين الاعتماد على المرتزقة والمجندين الأفريقيين لتأمين ما يحتجون إليه من تفوق عددي.

وأهم من ذلك كله أن الدول الامبريالية كانت قد أجمعت بمقتضى اتفاقية بروكسل لعام1890 على ألا تبيع الأسلحة للأفريقيين، مما ترتب عليه أن معظم الجيوش الافريقية لم تكن تملك من الأسلحة سوى البنادق القديمة الطراز مثل المصونات والبنادق التي تعمر من فوهانها، ولم يكن لديها أية مدفعية ثقيلة أو أساطيل بحرية.

ومنجهة أخرى كانت الجيوش الاوربية تتمتع بدعم أساطيلها البحرية وتمتلك أحدث الانواع المدفعية الثقيلة والبنادق المتعددة الطلقات وبخاصة رشاشات جاتلنج ومكسيم، فضلا عن السيارات بل الطائرات في مراحل الغزو الاخيرة. ومن الآمور ذات الدلالة أن الزعيمين الآفريقين اللذين نجا في الحاق بعض الهزائم بجيوش الاوربيين، وهما سموري ومنليك، كانا الوحيدين اللذين استطاعا الحصول على بعض الاسلحة الحديثة. ويخلص الشاعر البريطاني هيلير بيلوك في بيتين من الشعر تفوق اوربا العسكري الساحق على افريقيا (مهما حصل فلدينا رشاشات مكسيم وليست لديهم).

وبالنظر إلى كل المزايا الاقتصادية والسياسية وعلى الأخص المزايا العسكرية والتقنية التي كانت اوروبا تتفوق بها على افريقيا، فقد كان الصراع أبعد ما يكون عن التكافؤ وكانت نتائجه محتومة، ومجمل القول أن توقيت الغزو لم يكن ثمة أنسب منه بالنسبة لأروبا ولا أسوأ منه بالنسبة لإفريقيا. ويمكن تلخيص جملة تلك العوامل كالاتي:

- تفسخ النظام الإقطاعي وازدياد قوة الدول ومن ثمة نفقاتها.
- تطور قوي الإنتاج وميلاد الحاجة إلى المعادن الثمينة، بعدما استنفذت معظم مناجم أوروبا.

- سيطرة الأتراك على مصر وغلقهم لتجارة المتوسط مما سيضطر الأوروبيين إلى البحث عن طريق آخر للوصول إلى مصادر التوابل، التي ازداد الطلب عليها بفعل تطور العادات الغذائية، التي أفرزتها النهضة.

- تطور علوم وفنون ركوب البحر (الخرائط، البوصلة، بناء السفن، تنظيم الرحلات الكبيرة...الخ)، مما سيساعد على بداية عصر الكشوفات الجغرافية الكبيرة (اكتشاف كريستوف كولومب للعالم الجديد عام1492 وفاسكو دو غاما للطريق البحري المؤدي إلى آسيا عبر جنوب إفريقيا عام 1498...الخ). وهكذا، وباكتشافهم للطريق البحري المؤدي إلى آسيا وكذا للعالم الجديد، سيكشف الأوروبيون عن نواياهم في نهب خيرات القارات الأخرى، وذلك ما سيؤدي إلى ظهور أولى إمبراطوريتين استعماريتين في الفترة الحديثة: البرتغال وإسبانيا. وتدريجيا أصبح البحث عن المواد الأولية وممارسة التجارة ثم النية في مراقبة الطرق التجارية، أهم أسباب التوسع الإغريقي.